محاضرة رقم: 07.

أخلاقيات البيئة (الأيكولوجيا)

أولاً: مدخل مفهومي لأخلاقيات البيئة

1- تعريف أخلاقيات البيئة (الأيكولوجيا)

هي من أهم فروع الفلسفة التطبيقية، تهتم بدراسة البيئة ومشكلاتها وهي ناتجة عن التقدم العلمي والتكنولوجي الذي هدد البيئة الطبيعية لحياة الكائنات الحية وعلى رأسها الإنسان. وتسمى أيضاً بالمصلح اليوناني الأيكولوجيا، وهو ينقسم إلى شقين إيكوس *Oikos*، عند اليونان يعني المسكن أو المأوى، ولوغوس *Logos*، هم العلم، أو دراسة، دلالة هذا المركب هي دراسة العلاقة بين الكائن الحي والبيئة التي تمكن له الوجود، وبمعنى أوضح الأيكولوجيا هي علم دراسة شروط الوجود بمعناه البيولوجي[1].

2- المعنى الاصطلاحي للبيئة

هي مجموع الأشياء والظواهر المحيطة بالفرد والمؤثرة فيه حيث نقول البيئة الطبيعية، أو الخارجية، البيئة العضوية أو الداخلية، البيئة الاجتماعية أو البيئة الفكرية.

أو هي دراسة العلاقات بين الكائن الحي والبيئة التي تمكن له الوجود، كما يمكن القول أيضاً أن فلسفة البيئة أو الأيكولوجيا؛ علم دراسة شروط الوجود بمعناه البيولوجي،

---

(1)- *Gilbert Hottois et Jean-Noël Missa, Nouvelle Encyclopédie de Bioéthique, De Boeck Supérieur, Paris, 2001, p.350.*

وهي العلم الذي يدرس الأوساط حيث تولد وتحيا الكائنات الحية، وحيث تكون بينها تفاعلات من جهة، وبينها وبين البيئة التي تمكن لها الحياة[2].

ثانياً: الفلسفة البيئية عبر مراحل التاريخ الفلسفي

1- عند المصريين القدماء

من خلال كتاب الموتى باعتباره أقدم كتاب مصور عرفته البشرية، يعبر فيه الإنسان المصري القديم عن مدى معرفته وإدراكه لضرورة الحفاظ على البيئة كإحدى الوسائل التي يتقرب بها إلى الإله. إضافة إلى تعويده إعلان براءته أمام الإله، والتي يؤكد من خلالها المتوفي على احترامه للكائنات الأخرى ولحقوقها، مصرحاً في أنه لم يحرم الماشيه من عشبها، ولم يصنع الفخاخ لعصافير الإله، كما لم يصطد سمكاً من بحيراتهم.

ما يدل على احترام المصريين القدماء للبيئة هو اعتبارهم لمظاهر الكون من (السماء، والأرض، والشمس، والحيوانات) مصدراً لديانتهم كاتخاذهم للشمس إلهاً من الآلهة، وتقديسهم للنيل، وتوجيههم له التراتيل والأناشيد خلال صلواتهم.

2- عند الإغريق

لقد نجح أرسطو في تقديم تفسير للعالم الطبيعي، باعتباره أن الأرض مركزاً للعالم الطبيعي، تفسيره أو تعليله كان تعليلاً غائياً، وأن الطبيعة عنده تعرف ذاتها، وتصحح نفسها إذا ما أصيبت بأي خلل، ما يعني أن الطبيعة تتميز بنوع من الوعي لغاياتها، يقول أرسطو مؤكداً الطابع الغائي للطبيعة ليقرر أنها الكفيلة برعاية الوجود الإنساني" فالطبيعة تمكن من نمو الأعشاب من أجل الحيوان، وتقد الحيوان من أجل البشر، بغية استغلاله

---

(2)- *Ibid, p.350.*

سواء للأكل أم أجل أغراض أخرى، فالطبيعة لم تفعل إلا الخير من أجل البشر"[1]، فإذا كان هذا التحليل الأرسطي يعني تعليلاً غائياً للطبيعة، فهو أيضاً يؤكد الرؤية النفعية لها بما أنها تقدم الضروري للإنسان، كما تمكن من تقرير أولية مفادها أنها حاضنة للوجود الإنساني، وهي الكفيلة بإتمام الوجود الحيوي للكائنات الحية الأخرى.

3- عند المسلمين

من الشخصيات الإسلامية التي اهتمت وأسهمت كثيرا في مجال الفكر البيئي (علي بن رضوان)، من خلال كتابه (رسالة في الحيلة في دفع مضار الأبدان بأرض مصر)، حيث درس من خلاله تأثير المكان وعناصر البيئة على الإنسان وعلاقتها بالأمراض المنتشرة بمصر، كما تناول بالدراسة موقع هذا البلد جغرافياً، درس مناخها وتأثيراته على السكان وما يصيبهم من أمراض، في النهاية أكد أثر هذه البيئة في أخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم، وفي النتيجة قدم دراسة بيئية ايكولوجية تربط الأسباب والنتائج بطريقة شاملة تشبه الكتب المعاصرة.

قدم أيضاً العلامة عبد الرحمن بن خلدون إسهامات جليلة في ميدان الفكر البيئي من خلال؛ تمييزه للبيئات الصالحة للعمران البشري، والبيئات غير الصالحة، حيث وضح في كتابه (المقدمة) الأقاليم الجغرافية وتأثيرها على أحوال الإنسان في الصناعة والملبس والقوت والمسكن.

تحدث عن أثر الهواء في أخلاق البشر وطبائعهم، كحديثه عن السودان بلد يغلب على أهله الفرح والسرور نتيجة الأجواء الحارة، أما مصر يغلب على أهلها الفرح، الخفة

(1) - *Aristote, La Politique, Trad. Marcel Prélot, Paris Gonthier, 1964, p.29.*

والغفلة عن العواقب، فلا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم، على عكس البلاد الباردة التي يغلب عليها الحزن والإفراط في الخوف من العواقب فيدخرون قوت يومهم لمدة سنتين.

لقد خصص ابن خلدون جزءاً كبيراً من كتابه المقدمة للحديث عن تأثير البيئة على البشر وعلى السياسة.

لكن رغم ما قدمه كل من ابن خلدون وابن رضوان، فإن أعمالهما لم تتعد الوصف للبيئة وعلاقتها بالإنسان، في حين أن المشكلات الحقيقية التي تعيشها البيئة هي من جراء تدخلات الإنسان، وسيطرته على الطبيعة واستغلاله لمواردها، رغم أن استغلال الإنسان لموارد الطبيعة في ذلك الوقت محدوداً مقارنة لما وعلت عليه اليوم.

4- البيئة في الفكر الفلسفي الغربي الحديث والمعاصر

عموماً دلت الأيكولوجيا في القرن التاسع عشر على جغرافيا الكائنات الحية ومنها النباتية، وتطورت الأيكولوجيا في القرن العشرين، أما في القرن الواحد والعشرون فقد مثلت رهاناً إنسانياً بالنظر إلى التجاوزات التي أحدثتها أنشطة الإنسان التكنولوجية الآثار التي أدت إليها البحوث الكيميائية وكذا الكيمياء الحيوية[1].

يبدو أن الأخطار التي وصلت إليها الإنسانية، سواء بما وقع من كوارث طبيعية حفل بها القرن الماضي أو بدأ بها القرن الحالي لسنوات، ضف إلى التوقعات التي يستشرف بها العلماء فيما يخص تطور الأنظمة البيئية، فقد استدعى ضرورة أخذ الحيطة

---

[1]- *Michel METAYER, La Philosophie Ethique (Enjeux et Débats Actuels), Saint-Laurent (Québec), Editions du Renouveau Pédagogique, 2000. p.287.*

والحذر، ذلك أن استمرار استنزاف الموارد الطبيعية أدى إلى جروح بعيدة الغور في قلب نظام الطبيعة.

ولهذه الأسباب عمل بيتر سنجر[2] بوصفه أبرز فلاسفة الأخلاق وأكثرهم إثارة للجدل، على الإقرار بحقوق الحيوان والمطالبة بالمساواة بين جميع الكائنات الحية، والأساس الأخلاقي الذي استند عليه في ذلك هو مبدأ المنفعة المتمثل في (أن أعظم قدر من السعادة لأكبر عدد من الناس)، وبما أن الحيوانات بدورها قادرة على الشعور بالسعادة، والشقاء، أو اللذة والألم مثلها مثل البشر، فإنه يجب علينا أن نضع في حساباتنا معاناة هذه الحيوانات في معاملاتنا لها، حيث رفض سنجر كل أشكال وصور العنف التي تمارس ضدها في تربيتها، أو استعمالها في تجارب الإنسان العلمية.

من بين العلماء الذين ساندو وشاركوا سنجر في أعماله للحفاظ على البيئة والرفق بالحيوان توم ريجان[1]، منطلقاً من مبدأ، أن إيذاء الكائنات البشرية لأجل المنفعة أو المتعة هو انتهاك للحقوق، وهو نفس ما يصدق على الحيوان ككل.

اتسع مجال البحث الايكولوجي ليشمل أخلاق الأرض عند ليوبولد، من تربة، مياه، نبات، حيوان أو الأرض إجمالا، فالتمسك بأخلاق هذه الأخيرة يغير دور الإنسان العاقل من مستعمر لمجتمع الأرض وسيداً له، إلى عضو هادئ أو عنصراً يمثل جزءا من هذه الأرض، لتجده يعمل للحفاظ عليها وعلى مظاهرها.

---

[2]- بيتر سنجر *Peter SINGER* (1946-...): فيلسوف أسترالي، يعمل أستاذ بجامعة برينستن الأمريكية، ومحاضرا في مركز الفلسفة التطبيقية والأخلاقيات العامة في جامعة ملبورن.

[1]- توم ريجان *Tom REGAN* (1938- 2017م): فيلسوف ومفكر أمريكي معاصر، متخصص في نظرية حقوق الحيوان، من مؤلفاته"قضية حقوق الحيوان" ألفه سنة 1983م.

أما الفيلسوف النرويجي أرني نايس *Arne Naess*[2]، فقد تبنى مذهباً يدعى (الايكولوجية العميقة)؛ يعني احترام الطبيعة الذاتية لجميع الكائنات الحية بغض النظر عن مكانتها بالنسبة للإنسان، والمبدأ الأساسي لهذا المذهب هو الاعتقاد بأن البيئة المعاشة تعني احترام كل من فيها للعيش والازدهار، بغض النظر عن ما يترتب عنه من فوائد نفعية لصالح البشر.

يميز أرني نايس بين وجهين لأخلاق البيئة، أما الأول يتمثل في تلك الأخلاق التي لا تهتم إلا بالتصور السطحي المجزأ للبيئة، والوجه الثاني لها هي تلك التي تعتني بالتصور العميق والقاعدي للبيئة، وهو المدلول الذي اصطلح عليه (بالأيكولوجيا العميقة)[3]، تهتم أخلاق البيئة السطحية ببعض القضايا مثل التلوث، واستنزاف الموارد البيئية، أما الأيكولوجيا العميقة فتتعدى مجرد التصور البرغماتي للطبيعة لتكون هي ذاتها محل التقدير الذاتي، ومن ثم تعبر الأيكولوجيا العميقة عن حركة فكرية تمتلك بعداً روحياً في تصور الطبيعة.

بالنسبة للأيكولوجيا العميقة لن تكون الحياة البشرية كاملة، ومتناغمة، وجديرة بالعيش ما لم تكن مرتبطة بالطبيعة، فهذه الأخيرة هي مصدر الحكمة العميقة التي تمد الإنسان بالمصادر القيمية لزحزحة الأنانية والفردانية، ذلك أن هذا الإرتباط بين الإنسان والطبيعة يمكن من التوحد مع شيء عظيم يفوقه في القوة والقدرة، ففي حضن الطبيعة يجد الإنسان وحي أخلاقي يمكن من الأخوة والتضامن العميقين مع كل من

---

(2)- أرني نايس *Arne Naess* (1912- 2009م): فيلسوف نرويجي، صاغ مصطلح الأيكولوجية العميقة، وهو شخصية فكرية مهمة ملهمة للحركة البيئية في أواخر القرن العشرين.

(3) – *Op.cit. p.310.*

يستمد مصدر وجوده من هذه الطبيعة، سواء أكان عالم الإنسان أو عوالم الكائنات الحية عامة[1].

هانس يوناس *Hans Jonas*[2] يعتبر الكائن البشري أكثر الكائنات وعياً، فأخلاق المسؤولية عند يوناس تنبع من كون الإنسان أكثر الكائنات وعياً وإدراكاً لضرورة التعاون المتبادل بين الكائنات الحية في الطبيعة، والإنسان هو الموجود الوحيد المعروف بقدرته على تحمل المسؤولية وتبعاتها، هنا يركز يوناس على مسؤولية الأجيال الحاضرة أمام الأجيال القادمة، إنه شعور أبوي يلف هذه المسؤولية ويمكن من الحيطة والحذر في سبيل الحد من التجاوزات التي أحدثتها التكنولوجيا على الطبيعة، فالحاضر يمتلك المعرفة والسلطة، بحيث يكون مستقبل الأجيال القادمة بين يديه الآن، وإذا ما أراد المحافظة على حق هؤلاء في الحياة فعليه الحد من امتداد السلطة وتجاوزاتها[3]، ومنه تجده يتحمل مسؤوليته الأخلاقية إزاء المستقبل، مستقبل الطبيعة، ومستقبل الأجيال البشرية اللاحقة.

وبغية المحافظة على حق الإنسان القادم في أفق الزمان يتجاوز يوناس التصورات الكانطية، وكان منطق حجاب الجهل الذي فعله الأمريكي جون راولز، ليذهب نحو العواطف الإنسانية من شعور بالخوف، وضرورة إثارة عاطفة الحيطة والحذر، شعور

---

(1) - *Ibid. p.310.*

(2)- هانس يوناس *Hans Jonas* (1903- 1993م): فيلسوف ألماني.

(3) - *Hans Jonas, Principe de Responsabilité : Une Ethique Pour la Civilisation Technologique, Paris, Le Cerf,* 1990. *p.25.*

أبوي اتجاه الأجيال القادمة إلى الحد الذي يعطي فيه لمفهوم المسؤولية بعداً مستقبلياً قوياً لصاح الأجيال القادمة في غيب الزمان[1].

مبدأ المسؤولية الذي تحدث عنه يوناس تجاوز أعراف التصورات الأخلاقية التقليدية التي تنظر نحو وجهة واحدة، ليمثل هذا المبدأ تصوراً شاملاً لكلية الفعل الخلقي الذي يسير نحو الإنسان الراهن، الإنسان الافتراضي، ويتحمل عبأ المسؤولية الكونية ويدعو الإنسانية الحاضرة لتصور مشروع الحفاظ على مقدراتها الحيوية، التي تعني الوجود بوجه عام بما فيه محتضنه الاستيتقي.

أما دانيال كالاهان فقد قدم بعض الأسس التي تؤكد ضرورة احترام حقوق الأجيال المستقبلية، إذ يجب على الأجيال الحالية ألا تتصرف بطرق تشكل خطراً على مصالح وحياة الأجيال اللاحقة، كما يجب عليها أن تقلل من المخاطر المستقبلية حتى تعيش الأجيال اللاحقة بكرامة، فاقترح ميثاقاً للحفاظ على حقوق الأجيال القادمة:

- للأجيال المقبلة حق في كوكب الأرض بألا يكون غير ملوث، وغير متلف.

- على كل جيل أن يشترك في ملكية كوكب الأرض، وتراثه من واجب الأجيال المقبلة منع الأضرار عليه حتى وإن كان بالإمكان إصلاحها وعلاجها.

- لذلك من مهام كل جيل الاحتفاظ برقابة دائمة وتقييم واع للتغيرات الناجمة عن التكنولوجيا التي تؤثر سلباً على الحياة بكوكب الأرض.

- يجب اتخاذ جميع الإجراءات الملائمة شاملة التعليم والبحث والتشريع لضمان هذه الحقوق.

---

(1) – *Ibid. p.77.*

5- قضية البيئة في وقتنا الحالي، مشكلة حقيقية

ازدادت حدة اهتمام الإنسان بالبيئة بازدياد حدة التطورات التي تشهدها التقنية والعلم، خوفاً من تبعات هذه التطورات المتسارعة في مختلف الحقول المعرفية، التي تتجلى في مخترعات واقتصاديات المجتمعات خاصة المتقدمة منها. إذ بدأت تتشكل نظرة حديثة متكاملة للإنسان والبيئة وخصوصا بعد زيادة ضغوط الإنسان على البيئة فنشأت مجموعة العلوم البيئية وهذه العلوم تشمل ثلاث بيئات البيئة الطبيعية والبيئة المصنوعة والبيئة الاجتماعية والاقتصادية.

ظهرت قضية البيئية ابتدءا من سبعينيات القرن الماضي بسبب بعض الكوارث البيئية الخاصة ببعض المدن الكبرى، نتيجة تدخل الإنسان في البيئة كما أسلفنا بما ينبعث من المصانع. ثارت ثائرة الشعوب وعرفوا التظاهر من اجل البيئة وبدءوا في تنظيم آليات سياسية من أجل رفع قضيتهم من مستوى القاعدة لمستوى القمة، هنا ظهرت قضية البيئة واتضحت، وازداد حجم الكارثة البيئية لتقابلها نزعة تشاؤمية خاصة بثقافة ما بعد الحداثة لتنشئ سيناريوهات للنهاية الإنسانية.

حقا أن مشكلات البيئة خطيرة وفريدة على مستوى التاريخ البيئي لكن المبالغة في قضية البيئة جعل منها قضية مستعصية على الحل في نظر الكثيرون فخلق هذا نوع من اليأس العام تجاه قضية البيئة، التي يمثل المسؤول الأول فيها هي الدول الصناعية الكبرى وأمريكا على وجه الخصوص. من هنا بدا يتسرب اليأس للباحثين في البيئة ليروا أن علم البيئة معقد ومتداخل مما لا يسمح بالتنبؤ المحكم بسلوك البيئة تجاهنا، ومن ثم فان منهج ما نفعله ويسمى بدراسات تقيم الأثر البيئي ما هو إلا نوع من محاولة ارضاء الضمير أمام قضية يصعب لنا التنبوء العلمي فيها، فمنهج العلوم البيئية وأخلاقيات باحث البيئة وخصوصا مخابر دراسات تقييم الأثر البيئي يحتاجوا إلى ترميم.

كما أن موقف اليأس العام والعجز العام لا يحرك رؤية واضحة نحو مستقبل السياسات البيئية، فهي لحظة نادرة شغلت اهتمام وعقول البشر ككل، في بيئة أصبحت مصطنعة غير طبيعية، زائفة غير حقيقية، أضحت مصدراً للأزمات الأيكولوجية، تلك التي تنعكس سلباً على حياة البشر، والكائنات الحية الأخرى، بيئة يتحكم في صنعها الإنسان، وتفتقد إلى الحكمة الربانية، وإلى الاندماج العقلي بين البشر.